مدريد

لم تكد تبدد أشعة الشمس ما تبقى من ظلمة الليل حتى اقتربنا من مشارف مدريد ، وفي هدوء الصباح كنا نجتاز أحد أحيائها الجديدة في شمال المدينة . وفي ناحية منه وقفت سيارتنا أمام (فيلا) Colegis Mayor Cesar Carlos وهبط أحد رفقائنا من الاسبانيين وضغط على الجرس الكهربائي وسرعان ما انفرج الباب عن « سنيورا » في مقتبل العمر في رداء أسود يشع من رجهها جمال ساحر لم يعبث بفتنته الزمن . اقترّ ثغرها عن ابتسامة بريئة فيافنة بأماني تتفس في تنايا الترحاب وحسن المقابلة مع الصداجة واللطف . وما أن سمعت بقدومنا — كأنها كانت على علم بذلك — حتى هرعت الى الداخل ، ثم عادت ثانية مع صويحباتها وبعض المقيمين بالدار من طلبة جامعة مدريد النازلين بها كأنهم كانوا على موعد بلقاء حبيب ، وما أن تقابلت العيون وتصافحت الأيدي حتى علت صيحات الفرح وكلمات الترحاب . وانتشر الاسبانيون بيننا يتهافتون على التحدث معنا ، وضمت بنا « صالون » الدار « وبارد » كما نادت الحجرات على سعتها عما دعا بعضنا الى الانتقال الى دار أخرى مجاورة Autra Casa . وسرعان ما انتشر خبر وصولنا على صفحات الجرائد فأقبل علينا الصحفيون للإجابة على أسئلتهم الكثيرة في مثل هذه المناسبات وخاصة فيما يتعلق بالتعاون الثقافي بين بلدينا ، كما حضر لتحيتنا حضرة المحترم « السنيور جومث » مدير معهد الأبحاث العربية بمدريد والسيدة عقيلته الأستاذة بالمعهد وكلاهما من الاسبانيين وإليهما يرجع الفضل في دعوتنا لزيارة بلاده .

ولأول مرة أتيحت لنا الفرصة لمقابلة إخوان لنا في اللغة والدين والعروبة وهم وفد عربي من طلبة جامعة مدريد ومن أهالي الريف الاسباني بشمال أفريقيا على مقربة من جبل طارق . وكم كان شعورنا بهذا اللقاء لما بيننا من أواصر الصلة والقرابة .

كنا في فصل الصيف وفي آخر يوم من شهر أغسطس وقد ارتفعت درجة الحرارة الى ٤٤° م في مدريد كما ارتفعت أكثر من ذلك في بعض البلاد الأخرى وحدا بالرغم من وقوع مدريد في خطوط العرض الشمالية وارتفاعها عن سطح البحر بأكثر من ألفي قدم كما أنها على أبعاد

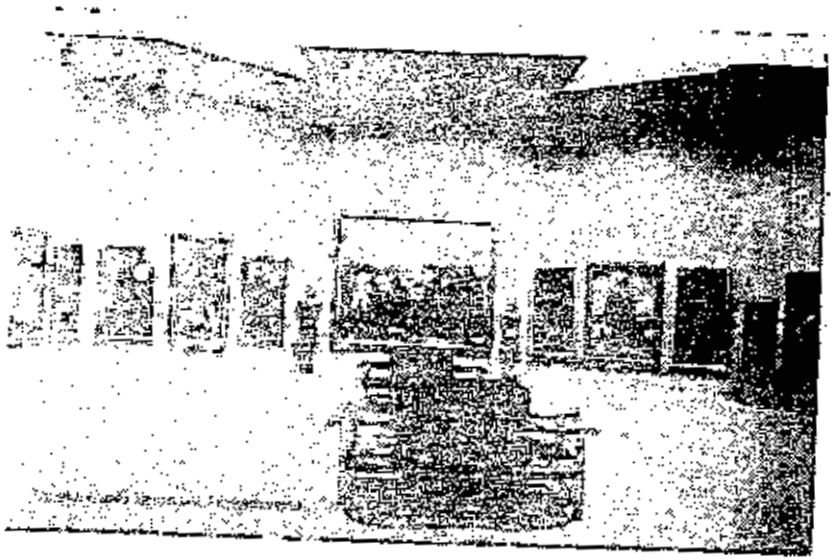

قاعة فلاسكويه بمتحف برادو بمدريد

بعض كليات جامعة مدريد وملاعبه

متساوية تقريباً من خليج بسكاي في الشمال الغربي والمحيط الأطلسي في الغرب والبحر الأبيض المتوسط في الشرق والجنوب . ولنظراً لعدم وجود الجبال المرتفعة المحيطة بها فانها تعرضت مديد لكثير من التقلبات الجوية ، إذ سرعان ما أمطرت السماء عصر اليوم الثاني فلطفت من شدة الحرارة ، ولذلك لا تندهش أن تجد الدار التي نزلنا بها مزودة بمهام التبريد وحديقة فسيحة .

ولقد أثر المناخ في عادات الاسبانيين وحياتهم ، فهم يغيرون الى دورهم وقت الظهيرة ويبدلون ستائر نوافذهم وينامون ولا يخرجون إلا بعد عشائهم قرابة الساعة التاسعة مساء ، ولذلك تجد الشوارع التي كانت خالية من المارة أثناء النهار تمتلئ بعد ارهم قبل كبارهم الى وقت متأخر من الليل . وليس غريباً عندهم أن تجلس مائلاتهم أمام دورهم في أكبر شوارع المدينة وأمامهم أطفالهم يلهون ويمرحون . كما هيأت الحكومة في الشوارع الكبيرة وفي ظلال الأشجار مقاعد من الرخام مبلوس المارة عليها .

وجولة خلال شوارعها تكفي لإلقاء الضوء على مبانيها الحديثة التي ترجع الى عصر النهضة إذ لا يتعدى قدم مدريد منتصف القرن العاشر الميلادي . فكانت قرية صغيرة في حوض نهر المانجه تعرف بمجريط في عهد العرب حتى استولى عليها الفونسو الرابع سنة ١٠٨٣ ثم اتخذها فيلبي الرابع مكاناً للعيد . لكنها لم تتم إلا في عهد شارل الخامس وفيليب الثاني الذي اتخذها عاصمة له ١٥٦٠ فأدخل فيها طراز الباروك في المباني الحديثة ولم يستخدم من الفنون السابقة إلا الطوب والجص ولذلك لا تجد في مدريد من المباني الهامة سوى القصر الملكي .

وبعد عصر هذا اليوم انتقلنا الى الجامعة ، ولم نستغرق وقتاً طويلاً للوصول إليها لقربها من الدار التي نزلنا بها ، ومع ذلك فهي بعيدة عن قلب العاصمة ، إلا أن الزحام يخترق الجامعة حتى يصل الى أبواب كلياتها مما يوفر سبل الراحة ومشاق السير على الأقدام مدة طويلة التي تتكبدها نحن في مصر بين الزحام والكلية . ومما هو جدير بالذكر أن جامعة مدريد ما زالت في دور التكوين من حيث البناء رغم عراقتها في القدم من حيث الوجود ، إذ يرجع بعد تكوينها الى القرن السادس عشر ثم أخذت تنمو وتتوسع حتى أصبحت كعبة العلم في وسط أسبانيا يؤمها الطلاب من كل حدب وصوب حتى العصر الحالي . فكانت منار العلم

ومركز الحركات الوطنية . ومنها نشبت الثورة الأهلية عام ١٩٣٦ بين الأسبانيين الاحرار والشيوعيين الحمر فتهدّمت عن آخرها وصارت خراباً ، وتفنّنت الثورة في عدّة شهور على ما شيدته أسبانيا في عدّة قرون وتحوّلت الجامعة الى أطلال وخرائب لا تزال آثارها باقية الى اليوم . وما أن وضعت الحرب أوزارها حتى أخذت إدارة الجامعة في اعادة بنائها على أحدث وسائل الغربة العقلية والجسمانية . ولم ترَ من كلياتها إلاّ كلية الآداب والفلسفة وستشنى بجوارها وبعض الملاعب الرياضية شكل رقم « ٢ » ويظهر أن معظم الكليات الباقية والمدينة الجامعية لم يتم بناؤها الآن رغم ما تبذله الحكومة من جهد في سرعة استكمال النقص في عدد كلياتها . وجولة واحدة خلال كلية الآداب كافية لمعرفة ما سيتمتع من النظم الحديثة في الكليات الأخرى فهي أحدث بكثير من آدابنا التي يرجع تاريخها الى عام ١٩٢٥ .

وأهم ما استرعى نظرنا اهتمام الحكومة بتوفير أسباب الراحة للطلاب وتهيئة الجو الصالح لتشجيعهم لتلقي العلم بصدر رحب . فقد كسي الجزء المعد للكتابة عليه من مقاعد الجلوس بطبقة من الفلين السميك لسهولة الكتابة . كما روعي في مدرجات المحاضرات السرعة في انجاز ما يطلبه المحاضر . فجهزت منضدته بتليفون للاتصال بالخارج . وبجواره بعض المفاتيح الكهربائية لاضاءة القاعة واطفائها حسب الحاجة كما أعدّ مفتاح لإسدال الستائر فوق النوافذ والأبواب عند عرض الأفلام السينمائية أو استعمال الفانوس السحري . وهناك مفتاح آخر لرفع أو خفض السبورة والشاشة البيضاء دون مساعدة أحد .

وكفلت الجامعة للطلبة الحرية الدينية ، ففي أحد أركان الكلية في الطابق الأول أعدت قاعة كبيرة لها جانبان من الزجاج يرى منها الجالس فيها الحدائق الغناء التي تحيط بالكلية ، فتروّح عن النفس وتذهب بالملل والسأم الناتج من التحصيل والدرس . وفي جانب آخر من هذه القاعة أقيم « بار » بوفيه » ليجتني منها الطلاب ما لذّ وطاب من أنواع الشراب .

والى جانب وسائل الترف والراحة للطلبة لم تهمل الجامعة الناحية الدينية فأقامت لهم معبداً صغيراً به هيكل على يمين الداخل للكلية لاقامة الطقوس الدينية .

وقد زوّدت الكلية بمكتبة فرعية خاصة بها إلاّ أن جميع كتبها ومراجعها باللغة الاسبانية ما عدا القليل منها الخاص بتعليم اللغات اللاتينية والرومانية والانجليزية والفرنسية والألمانية والسامية التي تدرس بأقسام الكلية . وأدت هذه العصبية نحو اللغة الاسبانية الى قيام نخبة من علمائها بترجمة كل حديث من المؤلفات العلمية الأجنبية الى اللغة الاسبانية ،

فنشأ الطلبة والأساتذة لا يعرفون غير الاسبانية التي إلا نفر قليل تخصص في دراسة اللغات الأخرى . وقد لمسنا ذلك بأنفسنا في مختلف جامعات اسبانيا إذ تعذر علينا التفاهم مع أساتذتها وليس مستغرباً أن ترى هذه العصبية في بلد اهتمت بلغتها القومية دون سواها

* * *

وفي صباح اليوم التالي أقلتنا السيارة الى متحف برادو في الشارع الكبير Grand Via في مكان جميل منه بين الحدائق الفناء والمناظر المثيرة الخلابة التي تجعل من مدريد أعظم مدن العالم سحراً وجمالاً ويعتبرها الفنانون وحدة واحدة من الناحية الفنية لوجود متحف برادو بها أول متاحف أوربا — ان لم يعد من أعظم متاحف العالم — بما يحتويه من اللوحات الفنية الزيتية الرائعة من حيث التكنيك والتي يربو عددها عن الألفين . والاسبانيون من الشعوب التي تعترف بجميل عظمائها وتخلد ذكراهم . فها هو تمثال الفنان جويا أمام كتب أمام مدخل المتحف .

بني المتحف على الطراز الحديث ليتسع لعرض ذلك العدد الهائل من اللوحات الكبيرة . أعدّ الطابق الأول منه لعرض ما أنتجه الفنانون من النقوش البدائية والتماثيل والبقايا الأثرية القديمة وقد استطاع الأسبانيون اعادة بناء حضاراتهم القديمة بصورة مصغرة قريبة من الطبيعة بطرق جذابة تسترعي النظر وتملي عليه ما توحيه من عرض . فمثلت العصور الحجرية وعصر المعادن خير تمثيل ، فهذه منطقة جبلية صغيرة بكهوفها وسكانها ، وتلك تمثل حياة الصيد مع عرض أدواته ، وخصصت منطقة أخرى للحضارة الرومانية وتماثيلها وهذا أشبه بما نسميه في مصر متحف الحضارات التي ما زال في دور التكوين ، مع الفارق الكبير بينهما

أما الطابق الثاني فيتكون من قاعات كبيرة ، مرتفعة السقف ليتخللها النور الكافي لرؤية لوحاتها . وقد روعي في توزيع قاعاتها التخصص بالنسبة للفنانين فتلك قاعة فلاسكويز . وأخرى لجويا ، وثالثة لجريكو ، وغيرها للرسامين المشهورين وقد وزعت اللوحات على جدران القاعات بطريقة خلابة مريحة ، لا تتطلب تعباً ولا ملالاً كثيراً من الناظر إليها وقم ٣ وتتوسط هذه القاعات كراسي تتيح للجالس عليها أن يرى ما يشاء من تلك اللوحات .

وأين ذلك المتحف ونظامه من متاحفنا اليوم ، فهذا متحفنا المصري للآثار الفرعونية ، وتلك دار الآثار العربية ، وقد كدست التحف على جدرانها وفوق أرضيتها كما تدلت من سقفها ولا تجد شبراً من الفضاء إلا وتجد فيها تحفاً فقدت رونقها بين غيرها مما يبعث الملل

بمجرد النظر اليها . وان مئي يتنبه أولو الأمر ويتفقون مشروعات المتاحف الحديثة المتسعة القاعات والطرقات لتصف فيها آثارنا بطريقة حديثة تشجع الاقبال عليها وزيادة تعرف الناس بها . لقد فاتنا القرب بتلك المظاهر ، وتقدم بسرعة فائقة في هذه الناحية الفنية ، فلما لا نماريه في هذا الاتجاه وننهض بتراثنا لتشجيع الفنانين والمشتغلين بدراساتها ؟ فيتسع العلم وتتسع آفاقه ، كما تيسر للسائحين الاجانب أخذ فكرة صحيحة واضحة عن تراثنا الفني كما أخذنا فكرة سليمة عند زيارة متحف برادو .

حقاً انه يحتوي على جدرانه مختصراً لروائع الفنانين الاسبانيين أمثال فلاسكويز وجويا وجريكو . كما يضم تحف كثير من الفنانين الايطاليين والفرنسيين والبلجيكيين مثل روفائيل وبوتشيلي تنتاريتو وتيتيان وجورجيون الايطاليين وفاندرفيلد وروبين الهولنديين والبلجيكيين .

وبفضل هذا المتحف ولوحاته الخالدة نشأ الشعب الاسباني محبًّا للفن والفنانين مشجعاً لذوي الميول الفنية من الناشء الحديث أن ينهل من تراث المتحف . وقد ظهر ذلك في تلك الشبيبة من الفتيات والفتيان المنتشرين في أرجاء قاعات المتحف عاكفين على لوحاتهم ينقلون إليها ما يعن لهم من روائع فن عظمائهم من الرسامين الاسبانيين . كما تساهم إدارة المتحف في نشر مجموعاتهم لكل من يرغب من الزائرين بثمن قليل ، وتختار هذه المجموعات أتقن ما يمكن الحصول عليه من المتحف لتعذر الحصول عليها في غيره ولقيمتها الفنية إذ أنها صورة مصغرة مطابقة تماماً لأصولها بألوانها الطبيعية مما دعانا الى التسابق في الحصول على هذه المجموعات .

وعند الأصيل أذنت لنا الجهات الرسمية بزيارة القصر الملكي وهو المبنى الوحيد الذي تفخر به مدريد . وقد كان شعورنا لا يتدبر لهذه المناسبة الكريمة لأنها أول مرة نشاهد فيها قصراً ملكيًّا تربع فيه خيرة ملوك أسبانيا ، ونرى أبهاءه وما حوته من نفيس المتاع والرياش وما ازدانت به من التحف . وأتاحت لنا فرصة قضاء الجزال فرانكو فصل الصيف في شمال أسبانيا وتفيئه من القصر التمتع بكامل حريتنا في التنقل بين أبهائه وقاعة عرشه . في تلك النشوة التي غمرتنا بالسرور افترينا رويداً رويداً من القصر . ودلتنا الدهشة حين

بعض أعضاء البعثة في زيارة متحف برادو

مدير معهد البحوث العربية في غرناطة يحيط به أعضاء البعثة
في دار سيزار كارلوس بمدريد

وأينما نصرآ شاهق الارتفاع كأنه قلعة كبيرة يشغل مساحة عظيمة ويتكون من عدة طباق تقسم وجوانبه دعائم ضخمة تحصر بينها نوافذ وشرفات تماثل كل واجهته التي تشبه المعابد النسكانية . اجتزنا باب القصر الكبير بين حرسه بأزيائهم المزركشة الى فناء داخلي تحيط به بوائك مزدوجة مقامة على عمد ضخمة يعلوها شرفات تبدو عليها بصفة عامة القدم ، كأنها ترجع الى عهد بعيد . وفي خلال أحد هذه البواكي صعدنا درجاً عريضاً من الرخام ما لبث أن انفرج عن درجتين ذات اليمين وذات الشمال يتقدمهما قطر من الزجاج به كرسي العرش الذي كان يجلس عليه فيليب الخامس . وكان يحمل الكرسي ثمانية رجال أشداء . ولا تعي الذاكرة وخاصة بعد أن انقضى عام على هذه الزيارة ذكر ما احتوته أبهاء القصر وانما سأذكر على سبيل المثال ما عنّ لي من الملاحظات وهي أن أهمّ ما بها هو السجاج الذي يرجع الى القرن السادس عشر . وسميت قاعات القصر بأسماء ألوان السجاد التي فرشت بها . فهذا الصالون الأصفر لشارل السابع وكانت أرضيته وجدرانه مغشاة بسجاد أصفر شحب لونه بمرور الزمن فأصبح طلاؤه بلون أحمر خفيف، كما فرشت حجرة الأكل بسجاد نسجت خيوطه وعقده من الذهب ، وما زال بالقصر حجرة شارل الثالث التي بنى نصف مدريد بفرشها الذي مات عليه ، وفوق مدخل القصر مجد قاعة العرش حيث يجلس الملك على كرسي يرتفع عن أرضية القاعة بأربع درجات بينما صفت أمامه كراسي الوزراء ورجال الأسرة المالكة وقد غشيت جدرانها بالسجاد الأحمر .

* * *

ويبدو القصر من الجهة الخلفية كأنه قلعة شاهقة لارتفاعه إذ أقيم على ربوة مرتفعة يعلو سورها عن سطح الأرض بمقدار كبير يصعب على المعتدين تسلقه مما سهل الدفاع عنه. ونظرة واحدة في سجل التاريخ الى الوراء نجد انه كان قلعة مدريد أولاً ثم اتخذه فيليب الخامس في بداية القرن السابع عشر مقراً له ثم تتابع الملوك الاسبان من بعده في الاقامة به حتى العصر الحالي ، وقد تركنا القصر بمثل ما استقبلنا به من الحفاوة والاكرام .

محمد رجب البيومي
دبلوم في الآثار الاسلامية